بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

.... المقدِّمات المهمَّة التي ينبغي أن يعتني بها طالب العلم وهو يدرس الإيمان، الإيمان الذي هو أعظمُ العلوم وأشرفها وأجلها علىٰ الإطلاق، والله جل وعلا يقول: ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

فطالب العلم ينبغي أن يكون في تعلُّمه للإيمان وطلبه له أن يسير سيرًا صحيحًا وأن يسلك نهجًا سديدًا علىٰ ضوء ما جاء في كتاب الله العزيز وسنة نبيه ﷺ.

وقد عرَفنا -أيها الإخوة- بعض المقدِّمات المهمَّة وشيئًا يسيرًا من البدايات التي ينبغي أن يعتني بها طالب العلم في هذا الباب، وكان آخر حديثنا في هذا الباب عن حديث جبريل العظيم، وأنَّ هذا الحديث يُعطي طالب العلم منهجيَّةً رصينةً في طريقة الطلب وفي حقيقة ما يُطلَب ويحصَّل، ورأينا تلك السُّؤالات العظيمة التي طرحها جبريل عليه السلام علىٰ نبيِّنا ﷺ قاصدًا بها تعليم النَّاس دينهم كما هو منصوصُ النبي ﷺ في آخر الحديث وتمامه.

ومن جملة ما قد وقفنا عليه في هذا الحديث العظيم المبارك: بيان النبي ﷺ لمراتب الدين، وأن الدين علىٰ ثلاثة مراتب وهي:

- الإسلام -ومر في الحديث بيانه.
- والإيمان -ومر في الحديث بيانه.
- والإحسان -ومر في الحديث بيانه.

وسبق الكلام علىٰ هذه الرتب الثلاث، وبما يكون المرءُ مسلمًا؟ وبما يكون مؤمنًا؟ وبما يكون محسنًا؟

ولم يَتمّ حديثنا في هذا الموضوع، سنواصل الكلام علىٰ ما يتعلَّق بالإسلام والإيمان وبيان الفرق بينهما علىٰ ضوء ما جاء في حديث جبريل عليه السلام، والأحاديث الأخرىٰ والآيات الواردة في هذا الموضوع، وإن كان قد مر معنا طرفًا أو جانبًا من هذا الموضوع، أعني الفرق بين الإسلام والإيمان.

والإسلام والإيمان قد عُرِّف كل منهما في حديث جبريل، فقد عرّف النبيُّ ﷺ الإسلام في الحديث بالأعمال الظَّاهرة، وعرّف الإيمان بالاعتقادات الباطنة، لكنَّنا هنا ينبغي أن نلاحظ والحديث ماضٍ بنا في الكلام عن الفرق بين الإسلام والإيمان، أن نلاحظ ورود الإسلام والإيمان في النصوص نصوص

الكتاب والسنة، لأن الإسلام قد يأتي في بعض النصوص مُفردًا غير مقرونٍ معه ذكر الإيمان، وأحيانًا يأتي ذِكر الإيمان مفردًا ليس مضمومًا معه ذكر الإسلام، وأحيانًا يأتي الإيمان والإسلام معًا في نصٍّ واحد، وهذا ينبغي أن يُلاحظ في الكلام علىٰ الفرق بين الإسلام والإيمان حال الاقتران وحال الافتراق، ذلك أنَّ الإسلام إذا ذُكر مفردًا فإنه يشمل الدِّين كله، وكذلك الإيمان إذا ذُكر مفردًا فإنه يشمل الدِّين كلَّه، الإسلام إذا أُطلق شمل الدِّين كله أصوله وفروعه، والإيمان كذلك إذا أُطلق أو أفرد يشمل الدِّين كله أصوله وفروعه، وإذا ذُكر مضمومًا إلىٰ الإيمان، أي: ذُكر الإسلام والإيمان معًا في نصٍّ واحد كحديث جبريل، وكقوله تعالىٰ: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات:١٤]، وكقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[الأحزاب:٣٥]، ونظائر ذلك مما جاء في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

فهنا ينبغي أن يُلاحَظ عند التعريف ورود الإيمان والإسلام مجتمعَيْن، وفي هذا يذكر أهل العلم قاعدة مفيدة في هذين الاسمين الإسلام والإيمان وفي غيرهما أيضًا من الأسامي التي سأشير إلىٰ شيءٍ منها، والقاعدة هي: **"أن هذه الأسماء من شأنها أنها إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت"**، وهذه قاعدة مهمة في هذا الباب، ما معنىٰ هذا؟ أي: أن الإسلام والإيمان من شأنهما أنهما إذا اجتمعا في الذكر، اجتمعا أي: في نص واحد، في آية واحدة أو حديث واحد أو موضع واحد افترقا: أي: في المعنىٰ، فيكون للإسلام معنًىٰ خاص، ويكون للإيمان معنًىٰ خاص، وإذا افترقا: أي: في الذكر، بأن يكون كل واحد منهما ذُكر بمفرده، اجتمعا في المعنىٰ.

أيضًا توضيح لهذا: الإسلام والإيمان قد يجتمعان وقد يفترقان، أي في النصوص في ورودهما في النصوص، فقد يجتمعان أي: يذكر الإسلام والإيمان معًا مجتمعين في آية أو في حديث، فهنا يقال: اجتمعا، أي: في الذكر ذُكرا معًا، ففي حال اجتماعهما يكون للإسلام معنىٰ ويكون للإيمان معنىٰ.

وأحسن ما يبين لك الفرق بينهما حالَ الاجتماع حديثُ جبريل، فلاحظ حديث جبريل اجتمع فيه الإسلام والإيمان، فبماذا فسر عليه الصلاة والسلام الإسلام؟ وبماذا فسر الإيمان؟

فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة.

وفسر الإيمان بالاعتقادات الباطنة.

لاحظ معي مرة ثانية الدين قسمان: اعتقادات باطنة وأعمال ظاهرة.

اعتقادات باطنة في القلب، وأعمال ظاهرة تكون علىٰ الجوارح واللسان، فعندما يذكر الإيمان والإسلام معًا، يختص الإسلام بالأعمال الظاهرة ويختص الإيمان بالاعتقادات الباطنة، علىٰ ضوء تبيين النبي ﷺ لذلك في حديث جبريل، حيث لما سأله عن الإسلام فسّره بالشهادتين والصلاة والصيام والزَّكاة والحج، وهذه كلُّها أعمال ظاهرة، وعندما سأله عن الإيمان فسَّره بالإيمان بالله والملائكة والكتب والرُّسل واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وهذه كلُّها اعتقادات باطنة، فإذن الإسلام والإيمان عندما يذكران معًا يكون الإسلام مختصًّا بالأعمال الظَّاهرة، ويكون الإيمان مختصًّا بالاعتقادات الباطنة.

وفي هذا أيضًا قاعدة أخرىٰ نظير القاعدة المتقدِّمة في توضيح هذا الباب ذكرَها أهل العلم: وهي قولهم: **"إن من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّيات متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرِن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها"**، وأحسب أن هذه القاعدة واضحة لديكم تمامًا علىٰ ضوء ما ذكرته آنفًا، وتأملوا معي: "إن من الأسماء ما يكون شاملًا لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه"، يعني: عندما يُذكر مفردًا وحده، مثل: الإيمان، الإيمان إذا أفرد وأطلق ماذا يشمل؟ الاعتقادات الباطنة والأعمال الظاهرة، "فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره"، أي: قرن اسم الإيمان باسم الإسلام "صار ذلك الاسم دالًّا علىٰ بعض تلك المسمَّيات"، ما البعض الذي يدلُّ عليه الإيمان حال اقترانه بالإسلام؟ الاعتقادات الباطنة، "والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها" الاسم المقرون به هو الإسلام دالٌّ علىٰ باقيها، والذي بقي هو الأعمال الظاهرة.

مثل هذا: الفقير والمسكين، البر والتقوىٰ، وأسماء كثيرة شرعية تنطبق عليها هذه القاعدة أنها عندما تجتمع في الذِّكر تفترق في المعنىٰ، وعندما تفترق في الذِّكر تجتمع في المعنىٰ.

الآن تأمَّل معي بعض الأدلة، فهمنا ما سبق ونريد ننظر في بعض الأدلة لنعرف علىٰ ضوئها كيف نعرِّف الإسلام والإيمان.

عندما تقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقول الله: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [آل عمران:٨٥]، ما الإسلام هنا؟ الأعمال الظاهرة فقط؟ الإسلام هو الدِّين كلّه بأعماله الظَّاهرة وعقائده الباطنة، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ ﴾، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾.

عندما تقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ①﴾ [المؤمنون]، وقول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١٥]، ونظائر هذه الآيات، ما المراد بالإيمان هنا؟ الدين كله باعتقاداته الباطنة وأعماله الظاهرة.

فإذا جئت إلىٰ نص جُمِعا معًا كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وقوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]، وحديث سعد -الذي مر معنا في الليلة البارحة- قال: «إني لأراه مؤمنًا، فقال: أَوْ مسلمًا»، مما يدل علىٰ أن ثَمّة فرق بينهما، فيكون الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الاعتقادات الباطنة.

ثم لما نأتي عقب هذا لنعرِّف من المسلم ومن المؤمن؟ فالأمر واضح علىٰ ضوء ما تقدم، وعلىٰ ضوء ما بيناه في لقائنا الماضي، عرَفنا أنَّ الإسلام والإيمان وعندما يُسأل من المؤمن ومن المسلم؟ يعني من في درجة الإسلام ومن في درجة الإيمان؟ عرفنا علىٰ ضوء حديث جبريل أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، ولكننا أيضًا في الوقت نفسه عرَفنا أن الأعمال الظاهرة وحدها بدون شيء من الاعتقاد الباطن لا تنفع، فمن المسلم؟ -عرّفناه بالأمس- المسلم: هو من جاء بأعمال الإسلام الظَّاهرة وعنده من الإيمان ما يصحِّح إسلامه، أما إذا لم يكن عنده شيء من الإيمان يصحح إسلامه فهذا منافق لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منه صرفًا ولا عدلًا؛ لأن الناس من حيث الإيمان وعدمه ثلاثة أقسام:

قسم أهل الإيمان حقًّا وصدقًا وهم المؤمنين في الظاهر والباطن في القلب والقالَب.

والقسم الثاني: هم من عندهم إيمان في الظاهر وليس عندهم إيمان في الباطن.

والقسم الثالث: ليس عندهم إيمان لا في الظاهر ولا في الباطن.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأقسام الثلاثة وبيّنها في أول سورة البقرة، فذكر أولًا أهل الإيمان، ثم ذكر المنافقين، ثم ذكر الكفار الذين ليس عندهم لا إيمان في الظاهر ولا إيمان في الباطن.

ومثل هذه النصوص يستفاد منها فوائد عظيمة في تعريف الإيمان -الآيات التي تبيِّن أحوال الناس مع الإيمان وجودًا وعدمًا- يُستفاد منها فوائد عظيمة، ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية في مقدِّمة كتابه «الإيمان» أطال في عرض كثير من الآيات التي من هذا القبيل في بيان أحوال الناس مع الإيمان، وأنَّ المؤمن هو من آمن بالله ظاهرًا وباطنًا، جوارحه صلحت بطاعة الله وباطنه زكَىٰ بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وبكل

ما أمره تبارك وتعالىٰ بالإيمان به، وانظر هذا جليًّا في قوله تعالىٰ في وصف المؤمنين في أول سورة البقرة: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، فوصف هؤلاء المؤمنين بصلاح الباطن والظاهر، الباطن بالاعتقادات الصحيحة والإيمان السليم، والظاهر بصلاح الأعمال من صلاة وزكاة ونحو ذلك من الطاعات المقرِّبة إلىٰ الله جل وعلا.

ومن النصوص التي ذُكر فيها الإيمان مفردًا فيكون شاملًا للدين كله، وهو يبيِّن ما بدأنا بالكلام عليه: حديث الشُعَب، -وقد أشرتُ إليه فيما سبق- وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وفيه يقول ﷺ: «الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، أعلاها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»، وهذا الحديث جليلُ القدر، عظيم الفائدة، كبير النفع، حظي بعناية واسعة واهتمام بالغ من أهل العلم؛ بل إن من أهل العلم من أفرد هذا الحديث في مجلدات كما صنع البيهقي كتب في هذا الحديث سبع مجلدات، وغيره من أهل العلم، وكانت اهتمامات العلماء بهذا الحديث واسعة جدًّا، من جهات عديدة، من هذه الجهات؛ -حتىٰ نُدرك دأب أهل العلم وصبرهم في دراسة السنة ومعرفة الإيمان من خلال أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام-، عندما قال ﷺ: «**الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة**» أوضح إيضاحًا جليًّا وبيّن بيانًا تامًّا أن الإيمان فيه شعب، له أجزاء، له أفراد، له أنواع، ليس الإيمان منحصر في جانب، ليس الإيمان مختصًّا فيما يقوم بالقلب، ولا الإيمان مختصًّا بما يكون علىٰ اللِّسان، ولا أيضًا مختصًّا بما يكون علىٰ الجوارح؛ بل الإيمان يتناول ما يكون بالقلب وما يكون باللِّسان وما يكون بالجوارح، وذكر لنا عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث المختصر في ألفاظه الجامع في معانيه ودلالاته ذكر لنا ﷺ شيء مما يتعلق بالقلب، وشيء مما يتعلق باللسان، وشيء مما يكون بالجوارح؛ حتىٰ نعرِف شمول الإيمان وتعدد شعبه وتنوع جوانبه وأجزائه، قال: «**أعلاها: قول: لا إله الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان الحياء**»، الحياء مكانه القلب، إماطة الأذىٰ عن الطريق فعل بالجوارح، قول لا إله إلا الله نطق باللسان وعقيدة في القلب، إذن: الإيمان يشمل جوانب، يشمل أشياء تكون منّا بألسنتنا، وأشياء تكون منّا بجوارحنا، ويشمل عقائد تكون في قلوبنا، يتناول ذلك كلَّه، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة**»، ثم يقول: «**أعلاها: قول: لا إله الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»،

لنعرِف أن هذه الشعب والأجزاء للإيمان ليست علىٰ مستوىٰ واحد، ولا علىٰ مرتبة واحدة، بل لها أعلىٰ ولها أدنىٰ، وأعلىٰ شيء في الإيمان: لا إله إلا الله، وهذا أيضًا يدلُّنا علىٰ فضل كلمة التوحيد لا إله إلا الله، وأنها أعلىٰ شيء في الإيمان، «**أعلاها: قول: لا إله إلا الله**» فهي الرتبة العلية والدرجة المُنِيفَة والمنزلة الرفيعة، أعلىٰ شيء في الدين قول لا إله إلا الله، ثم أمور الدِّين تأتي دون ذلك، «**وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق**»، بين هاتين الشعبتين ماذا يوجد؟ شعبة لا إله إلا الله التي هي أعلىٰ الشعب وشعبة إماطة الأذىٰ عن الطريق التي هي أدنىٰ الشعب بين هاتين الشعبتين ماذا يوجد؟ شعب كثيرة، منها ما هو أقرب للأعلىٰ، ومنها ما هو أقرب للأدنىٰ، وتمضي هذه الشعب متفاوتة ليست علىٰ مستوىٰ واحد.

وهذا الحديث من الدلائل البيّنة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، وأن أهله يتفاضلون فيه، أليس يعلم كلُّ الناس أو كلُّ من عرف هذا الدِّين تفاوت أهله في قيامهم بهذه الشعب؟ وهل أهل الإسلام في قيامهم بهذه الشُّعب علىٰ مستوىٰ واحد؟ بل أنت أيها المسلم هل أنت مستواك مع هذه الشُّعب في أيامك وفي أوقاتك وأحايينك علىٰ مستوىٰ واحد؟ أم أنَّك تراك تارة تزيد فيها وتارة تنقُص؟! هذا أبين ما يكون في حسِّك وواقعك أن الإيمان يزيد وينقص، وأنك أنت تتفاضل فيه تارة يزيد عندك وتارة ينقص.

ولهذا قال الصحابي عمير بن حبيب الخَطْمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "الإيمان يزيد وينقص، قال: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وسبّحناه وحمدناه زاد، وإذا غفلنا نقص"، فالإيمان يزيد وينقص، وهذا يحس به كل أحد من نفسه، ولا ينفي عن الإيمان الزيادة والنقصان إلا مكابر معاند، وإلا زيادة الإيمان ونقصانه واضحة في الأدلة في الكتاب العزيز وسنة النبيِّ ﷺ والعقل يشهد لها والحس يشهد لها، والله جل وعلا يقول: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة]، ويقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ﴾[الأنفال:٢]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة، أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا ۩ ١٠٩﴾ [الإسراء]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ﴾ [مريم:٧٦]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة جدًّا، فالإيمان يزيد وينقص.

ومن دلائل نقصانه الصريحة قول النبي ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن ضعيف، وفي كلٍّ خير**»، وقوله ﷺ عندما ذكر أهل بعض المنكرات: «**فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهده**

بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وذلك أضعف الإيمان»، أو قال: «**وليس وراء ذلك حبة خردل من إيمان»**، وفي الحديث الآخر قال: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» ففيه الإيمان الأضعف، وفيه الأعلىٰ، وأيضًا ما ذكره عليه الصلاة والسلام عن النساء عندما قال: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم منكن**».

ومن الطرائف التي يحسُن ذكرها في هذا المقام: أن بعض النساء ربما تنزعج من هذا الحديث، من قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**» وهذا في الغالب لا يحدث هذا الانزعاج من المرأة المتدينة المطمئنة الواثقة بكلام الرسول عليه الصلاة والسلام المنشرحة الصدر بما جاء عنه ﷺ، لا يصدر مثل هذا ممن اطمأنّ قلبُها بالإيمان وانشرح صدرها لكلام الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأن من كان هذا شانه منشرح الصدر ويعلم من القائل ومن المتكلم بهذا الكلام وأنه عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوىٰ، علىٰ أن هذه الحديث لا مذمة فيه للمرأة؛ لأن قوله: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين» نقص الدين الذي يكون عند المرأة: تركها للصيام والصلاة وقت حيضها، وهذا نقص في الدين لكنها ليست محاسبة عليه، هو نقص في الدين من حيث مقارنتها بالرجل الذي لا ينقطع عن الصلوات وعن الصيام في كل أوقاته، وهذا النقص هي ليست محاسبة عليه؛ لأنها مأمورة به،

فقلت: إن مثل هذا الكلام لا يصدر من امرأة مطمئنة منشرحة الصدر واثقة بما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن بعض من يتفلتن ويَمِلْن إلىٰ بعض المخالفات أو أيضًا أو من يقعن في التبرج والسفور ونحو ذلك يكون في قلوبهن شيء من الوحشة من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام الزاجرة للمرأة عن المخالفة، مثل نهي المرأة عن أن تخرج متعطِّرة، ومثل أمره لها بأن تخرج متحجبة ومتسترة، ومثل أيضًا نهيها عن الاختلاط، فبعضُهن تتضجر وتتململ من هذه الأوامر، وتظن أن هذا نوع من التضييق عليها والتحجير، بينما في حقيقة الحال وهذا تُدركه كل امرأة عاقلة حصيفة مؤمنة مطمئنة، هذا في حقيقة الحال صيانة لها وحفظ لكرامتها وحفظ لعفَّتها، وبعد لها أن تكون أداة فساد ووسيلة هدم في المجتمعات.

فمرّة بعض النِّساء المتفلتات قلن لأحد أهل العلم معترضات قلن له: إنَّ النبي ﷺ يقول: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**» كيف يكون هذا؟ كيف يقال في المرأة هذا؟!! هذا مو صحيح! كيف يقول في

المرأة أنها ناقصة عقل ودين؟

فقال: إن النبي ﷺ لما قال: النساء ناقصات عقل ودين ما قصدكن بهذا الكلام، وما أرادكن بهذا الكلام، لما قال: «النساء ناقصات عقل ودين» أراد نساء الصحابة، أما أنتن فلا عقل ولا دين!!! قصد نساء الصحابة، يعني المرأة الفاضلة المتقية لله، العاملة بطاعة الله، هذه هي المقصودة، والنَّقص الذي عندها هي ليست مُلامَة عليه ولا محاسبة عليه، أما المرأة الجريئة التي تتجرَّأ علىٰ دين الله وعلىٰ كلام الله وعلىٰ كلام رسول الله ﷺ، وبكل وقاحة تعترض وتنتقد! أين الدِّين الزاجر؟ وأين الفهم أين الوعي؟ أين معرفتها بكلام الله ورسوله؟ ومن الذي يجرؤ علىٰ أن ينتقد أو يعترض علىٰ كلام الله وكلام رسوله ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]؟!!

علىٰ كلِّ حال من الأدلة التي مرت معنا علىٰ نقص الإيمان: قوله ﷺ: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**»، والأدلة علىٰ نقص الإيمان كثيرةٌ، وكلها قد أوردتها تاكيدًا للمعنىٰ الذي استفدناه من حديث الشعب، وأنه من الدلائل التي ذكرها أهل العلم علىٰ أن الإيمان يزيد وينقُص؛ لأن الإيمان له شعب، والناس في شعبه يتفاوتون، ليسوا فيه علىٰ درجة واحدة.

ذكرت لكم عناية أهل العلم بهذا الحديث العظيم، فاسمعوا شيئًا من عنايته حتىٰ تعرفوا اهتمام أهل العلم وطريقتهم في دراسة الإيمان من خلال أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

«**الإيمان بضع وسبعون شعبة**» أهل العلم في معنىٰ قوله: «بضع وسبعون شعبة» منهم من قال: المراد «**بضع وسبعون شعبة**» أي: المراد هذا العدد بعينه، أي أن الإيمان عدد شعبه بضع وسبعون، وفي بعض الروايات: «**بضع وستون**».

ومنهم من قال: إنّ العدد هنا لا مفهوم له، ما معنىٰ العدد لا مفهوم له؟ أي: أن النبي ﷺ قال: «**بضع وسبعون**» أراد الكثرة، يعني أن الإيمان له شعب كثيرة، وهذا يأتي في كلام العرب كثيرًا وخاصة السبعين والسبعمائة وما تضعّف منهما يستعمل للتكثير، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة:٨٠] ليس المراد هنا العدد ذاته، وإنما المراد: إن تستغفر لهم مرات كثيرة.

فمن أهل العلم من يرىٰ أنَّ العدد له مفهوم وأن شعب الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة علىٰ التحديد، ومنهم من يرىٰ أن العدد لا مفهوم له.

مَن مِن أهل العلم رأىٰ أن العدد لا مفهوم له بعضهم اجتهد في جمع شعب الإيمان وهؤلاء كثيرون،

منهم ابن حِبّان البُستيّ رَحِمَهُ اللَّهُ صاحب الصحيح، وله طريقة سلكها في جمع شعب الإيمان أخذت منه سنوات، وبعضنا يستكثر علىٰ نفسه جلسة أو جلستين في دراسة الإيمان، فأخذت منه سنوات، ماذا فعل؟ يقول -وهو ذكر ذلك في كتابه الصحيح-: لـ"ما قرأت هذا الحديث أخذتُ أتتبع السنن الواردة عن النبي ﷺ وأجمع فيها أمور الإيمان وخصاله فوجدتُ أنها كثيرة تزيد عن السبعين! -يعني الأشياء التي أمر الله بها، والتي نهىٰ عنها، والأمور التي أثنىٰ علىٰ أهلها وجدتها كثيرة- يقول: فرجعت وبدأت أقرأ المصحف، أقرأ القرآن آية آية واستخرج منه كل ما عدّه الله إيمانًا، -مثلا: قول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾[البقرة: ١٤٣، أي: صلاتكم، الصلاة إيمان، قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣﴾[المؤمنون] إلىٰ آخر الآيات كل هذه خصال إيمان؛ لأن الله عدّها في صفات أهل الإيمان، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[الأنفال]، فهذه كلها إيمان؛ لأنها صفات إيمان، فأخذ هذا العالم يتتبَّع كل ما نص الله علىٰ أنه إيمان فجمعه- يقول:" فاجتمع عندي أقل من السَّبعين، فأخذتُ أتتبع أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام حديثًا حديثًا، في السنن والمسانيد والجوامع، وأستخرج كل حديث نص النبي ﷺ فيه علىٰ أنه إيمان -مثل: «**لا إيمان لمن لا أمانة له**» ونحو ذلك من الأحاديث وهي كثيرة جدًّا- يقول: فاجتمع عندي أقل من السَّبعين فجمعت ما اجتمع عندي من القرآن وما اجتمع عندي من السنة، وحذفتُ المكرَّر فصار العدد بضع وسبعون"، هذه الطريقة سلكها هذا العالم، يقول: "وأودعتُ ذلك كلَّه في كتابي «وصف الإيمان وشعبه»، وهذا الكتاب مفقود ومن وقت ليس قليل، وبعض العلماء المتقدِّمين شيئًا ما هم ما وقفوا عليه، مثل: ابن حجر ذكر في «فتح الباري» أنه ما وقف عليه.

لكن أيضًا هناك علماء آخرون جمعوا في الشعب، مثل البيهقي في كتابه «الشعب»، ومن قبله شيخه الحُليمي في كتابه «المنهاج في شعب الإيمان»، ومن الكتب التي في هذا الباب ويناسِب أن تتداول كتاب مُختصَر لـ «شعب الإيمان للبيهقي» للقزويني رَحِمَهُ اللَّهُ، هذا مجلد لطيف فيه خلاصة لما في كتاب «شعب الإيمان» للبيهقي.

أنا أقصد بهذا: أن بهذه الطريقة يشتغل الإنسان بدراسة الإيمان ويعرِف الأحاديث، ثم لما يعرِفها يعمل بها ليزداد إيمانه ويَقوَىٰ يقينُه وتعظم صلته بالله تبارك وتعالىٰ.

ثم إنني أختم بالإشارة إلىٰ أن هذه ما هي إلا مقدِّمات ومداخل لدراسة الإيمان، وبيان شيءٍ من المنهجية التي ينبغي أن يكون عليها طالب العلم في دراسة الإيمان مع اعترافي التام بعجزي وقصوري وتقصيري.

أسال الله جل وعلا أن يعفو عني وعنكم، وأن يغفر لي ولكم، وأن يستعملني وإياكم في طاعته، وأن يهدينا جميعًا سواء السبيل، وأن يزيننا وإياكم بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يجعل ما نقوله حجة لنا لا حجة علينا إنه تبارك وتعالىٰ سميع الدعاء وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل، والله تعالىٰ أعلم، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.